الرياض

شارون الأرنب أو القاتل؟

مي كحالة

أما وقد أعلن اليمين الإسرائيلي أن رئيس الحكومة أرييل شارون هو مجرد "أرنب" يخاف من الجميع ولا يواجه الانتفاضة كما يجب أي بالكسح الشامل والكامل، وأما وأن العالم كله يشهد لشارون بأنه بولدورز اشتهر دولياً بمجازره في شرق المنطقة العربية وجنوبها، فإن الاستنتاج الأول الذي يتبادر إلى الذهن هو التساؤل كيف يكون المجرم إذاً "وفقاً" للمعيار الإسرائيلي؟

ومن جهة أخرى فقد أعلن هذا الأرنب شارون أن رئيس السلطة الفلسطينية هو "قاتل" ورئيس زمرة إرهابية لأنه ينتفض على الاحتلال، فباتت المعادلة تقتضي الإقرار بأن القاتل شارون صار أرنباً حين وقف في وجهه شعب رماة الحجارة وأنه خسر رهان "إبادة" الانتفاضة في مئة يوم وبات يبحث عن مخرج لائق له ـ إذا كانت اللياقة تجوز مع أمثاله ـ ليبرر لنفسه ولشعبه، وخصوصاً لناخبيه أنه فشل في القضاء على الفلسطينيين لأن عرفات... قاتل.

وقد نتمنى في الحقيقة أن تكون الصورة وفق ما يقدمها الإسرائيليون بحيث يقتل عرفات ولو لمرة قاتلي الشعب العربي ويتحول الجلاّد شارون إلى أرنب قد يختبئ في احدى زوايا مخيمي صبرا أو شاتيلا. لكن الجميع يدرك أن الموضوع مختلف تماماً لأن شارون لو ربح رهان الإبادة التي وعد بها ناخبيه لما عادت الإدارة الأميركية الجديدة عن قرارها عدم التدخل المباشر في "محرقة" شارون ولا أوفدت رئيس الاستخبارات المركزية جورج تينيت ليستعيد لبرهة صورة العهد السابق للرئيس بيل كلينتون الذي أراد في نهاية ولايته أن يحقق الأمن الإسرائيلي بأي ثمن. كما أن المتشددين اليهود باتوا اليوم يدركون أن الكهل الذي كان "كاسحة ألغام" الجيش الإسرائيلي في حروب كثيرة تحول إلى آلة لقطع العشب الأخضر تحت أرجل منافسيه على رئاسة تكتل الليكود أولاً ثم على رئاسة الحكومة ثانياً بحيث تلهى بتعزيز وضعه الداخلي بنفس القدر الذي كان يأمل مؤيدوه به لينصرف الى تأديب الفلسطينيين وفق نظرية القتل الجماعي.

لقد تمسك شارون طويلاً بقناعته بأن المستوطنات هي الحزام الآمن لأرض إسرائيل وبأن استقطاب اليهود من كل أنحاء العالم أو الصلاة لكي يتكاثروا ويتفوقوا عددياً على الفلسطينيين داخل أرض إسرائيل وفي مستوطناتها هو الحل الأمثل ليكمل قضم الأرض الفلسطينية وليوسع مستوطنات لا يزال ثلثها يفتش عن مالكين، والحقيقة أن المهاجرين اليهود باتوا يتريثون قبل "العودة" الى أرض الميعاد لا بل ان معظم الذين منهم صدقوا الدعاية الصهيونية عن تحويل الصحراء الى جنة هاجروا من جديد الى دول أكثر ثراء وأقل عدوانية تجاه محيطها الطبيعي.

فالحرب ليست في ذاتها نزهة جميلة يعد بها حكام إسرائيل كل الباحثين عن سراب العيش بأمان في وطن مخصص للديانة اليهودية، والموت الذي يضرب الشبان والشابات في بعض الأحيان لا يفرق بين الوافدين الجدد الذين لم يتذوقوا بعد طعم الطمأنينة أو الذين ساهموا في تأسيس هذه الدولة العنصرية واستماتوا في سبيلها. لذلك فالموت في سبيل إسرائيل لم يعد يغري أحداً والنضال لاسترجاع الأرض كما يدعي المؤسسون مرّ عليه نصف قرن ولم يرم السلاح والتقاتل مع العرب من أجل حفنة من التراب ليس أهم من التنافس في الشركات المتعددة الجنسيات لتحصيل مستوى عيش لائق. لقد انطوى القرن العشرين الذي شهد نصفه الأول صراعات عالمية من أجل احتلال الأرض ورأى نصفه الثاني حروباً تدار عن بعد وبواسطة العين الحمراء من دون أن يتعرض الجندي لأي خطر محدق به.

لقد شهد العالم حربين عالميتين قبل الخمسينات من القرن الماضي وشهد حرب الخليج في بداية التسعينات والفارق بينهما مئة مليون قتيل في الحربين العالميتين وبضع عشرات من الجنود العراقيين في حرب الخليج. فالإنسان لم يعد وقود القتال بل الآليات والطائرات والعقول الإلكترونية. فلماذا يطلب شارون وغيره من حكام الدولة العبرية من الشبان أن يموتوا اليوم بعدما استتبت لهم دولة يفترض ان يحصنوها بالسلام وليس بالحرب؟

وما يقهر شارون على ما يبدو هو إصرار بعض الدول على اعتبار رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية ياسر عرفات رئيساً لدولته غير المعلنة بكل معنى الكلمة، والتعامل معه على هذا الأساس فتمد له السجادة الحمراء التي تعبر رمزياً عن التقدير الرفيع الذي يتمتع به الضيف. لقد استشاط شارون غضباً حين شاهد عرفات يطأ السجاد الأحمر في حله وترحاله وهاله ان لا

يتردد الرؤساء الغربيون عن استضافته والتشاور معه فيما إسرائيل تدعو الى مقاطعته كإرهابي كما جرى في السبعينات من القرن الفائت. ويبدو في كل الأحوال ان السيد شارون لا يزال يعيش في ذلك القرن الذي شهد معظم مآثره وأنه سيطبع مطلع القرن الحالي بدم الشهداء الفلسطينيين لأنه عاجز عن اعتماد أسلوب الحوار بدلاً من وضع اصبعه على الزناد كما يهدد دوماً. والحقيقة تكمن في صعوبة تخيل الدول الغربية كيف سيستجيب شارون مثلاً لدعوة الجلوس الى نفس الطاولة للتفاوض مع عرفات طالما أنه لا يزال يتباهى برفض مصافحته ولو سرا؟ وكيف سيجد الموفدون الأميركيون الطريقة الملائمة لجمع الرجلين حتى لا يستمر الموت اليومي بخطف أنفاس الشعبين؟ فهل يمكن لتينيت العائد إلى المنطقة تحت ظلال العمل السري ليلتقي بالمسؤولين فيها أن يقرب بين النهجين المعتمدين حالياً كحرب من هنا وانتفاضة من هناك من دون أن يعترف شارون بأن عرفات هو الشريك الوحيد المتوفر له حتى الآن؟ وهل انتهت مهمة السفير بيرنز الذي تتناوله ألسنة التشكيك فترجمت اسمه من الانكليزية إلى العربية وهو يعني "يحرق" لتقول إنه أحرق أصابعه قبل أن تمتد يده الى الملف المتفجر؟ وماذا سيفعل شارون فيما لو قرر السناتور ميتشل التمسك بحرفية تقريره ليطلب من الفلسطينيين وقف الانتفاضة ومن الإسرائيليين وقف الاستيطان؟

لقد وصل الخطر الى حده الأقصى ـ وهل من يتذكر بعد أن الانتفاضة بدأت مع زيارة شارون إلى المسجد الأقصى؟ ـ ولابد بعد اليوم من تسجيل تراجع العنف اذ كما يقول الأمير عبدالله بن عبدالعزيز: لقد فعل شارون ما يريده حتى الآن، وإذا كان اليوم يومه فالغد لنا. ولذلك ينبغي بعد مجيء تينيت ومرور بيرنز وعودة ميتشل بالسلامة الى الولايات المتحدة الأميركية ان نتكل على أنفسنا وأن نخطط للغد فهو قريب وقد يشهد وفقاً لكل التوقعات سقوط شارون قبل مئة يوم من انتهاء مهلة وقف اطلاق النار. فهو انتخب ليخمد الانتفاضة وليس للتداول معها في شؤون المستقبل وليس هو في كل الأحوال الشخصية القادرة على المساومة وعلى التفاوض، بل رب ضارة نافعة اذ قد يعود الإسرائيليون الى رشدهم بعد هذه التجربة القاسية وينسون احلام الانتصارات الساحقة فيتحلون بالواقعية التي تقتضي منهم المزيد من التؤدة ليقتنعوا بأن الغد هو للعيش المشترك مع الفلسطينيين وليس للتقاتل الذي لا أفق له ولا نتيجة نهائية.